معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 18/ العدد 2 (ديسمبر 2023): ص.ص: 428-446

مفهوم السيولة كتقويم نقدي أخلاقي للنزعة الاستهلاكية عند زيغمونت باومان

The concept of liquidity as an ethical monetary assessment of consumerism at Zigmont Baumann

ط.د حميد لهواس[1] *. د. أحمد زيغمي[2]

[1]جامعة قاصدي مرباح ورقلة، مخبر الاضطرابات العاطفية السوسيومعرفية بجامعة ورقلة، الجزائر، lahoueshamid75@gmail.com

[2] جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، a.zighmi@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/06/26؛ تاريخ القبول: 2023/09/26؛ تاريخ النشر: 2023/12/31

ملخص:

استعمل باومان مفهوم السيولة كأداة إجرائية نقدية لنظام المجتمع المعاصر من عدة جوانب خاصة النزعة الاستهلاكية التي وصفها باومان بالخطيرة وهي حالة مجتمع ما بعد الحداثة الذي تتقوى فيه الفردانية على حساب النزعة الاجتماعية فالأفراد هنا يسارعون للاستهلاك أكثر فأكثر فكلما استهلكنا كلما أثبتنا وجودنا. كما شخص باومان هذا الداء واصفا حياتنا بالسائلة واعتبر أن الثابت الوحيد فيها هو المتغير فسرعة النجاة فيها تعتمد على خفتنا وأثر ذلك تغيرت أخلاق هذا العصر وأصبحت سائلة أقل ما يمكن القول عنها أنها باتت فنا للممكن وهي أخلاق لم تعد تقدس المقدس وتدنس المدني بل اختلطت المعايير فيها ففي ظل هذا الإطار يعالج باومان الحياة السائلة ويقدم تصوره حولها.

كلمات مفتاحية: باومان؛ الأخلاق؛ السيولة؛ النزعة الاستهلاكية؛ المجتمع المعاصر.

Abstract:

Baumann used the concept of liquidity as a critical procedural tool for the contemporary society system from several aspects, especially the consumerism that Baumann described as dangerous, which is the

* المؤلف المرسل.

case of a post-modern society in which individuality is strengthened at the expense of social tendency. As Baumann personified this disease, describing our life as fluid and considering that the only constant in it is the variable, the speed of survival in it depends on our fearlessness and the effect of that has changed the morals of this era and became fluid, the least we can say about it, that it has become an art of the possible, and it is morals that no longer sanctify the sacred and desecrate the civil, but the standards are mixed in them Within this framework, Baumann treats liquid life and presents his conception of it

Keywords: Baumann, ethics; liquidity; consumerism; contemporary society.

مقدمة:

عرفت حركة سيرورة الفكر البشري امتدادا كليا وشاملا عبر مختلف الأزمان، حيث تركت بصمتها في كل حقبة وومضة نضيفها إلى سلم أنغام المعرفة، وفي خضم هذه المعارف تنفتح معطيات الفكر المعاصر والذي إذا ما تأملته تملكتك الدهشة نتيجة جملة أو سلسلة من التحولات الفكرية الهائلة والتي شهدها العصر الحديث، والتي بدورها أوكلته مهمة طرح التساؤلات بغية معرفة مداها ومكوناتها بل وحتى علاقتها بالواقع الاجتماعي باعتبارها تقدم نفسها كتحديات يتعين الاستجابة لها، وهو الأمر الذي فتح المجال لحدوث تحولات قارية كبرى في مختلف الميادين .

أما في مرحلة ثانية فإننا نجد أن هذا الفكر الأوروبي قد عاد إلى وضع هذه الأفكار المتجددة على مشرحة النقد والمراجعة، حيث تتم مراجعة حدوده وأسسه العقلانية وأيضا نقد آداته ومركزيته حيث يفتح المجال للتأويل وتعدد المعاني، وما يميز هذا الفكر في هذه المرحلة هو لمسته النقدية أي أنه يستوجب نوعا من المعاملة النقدية، والذي يستحضر أيضا جملة من المعايير الإبستمولوجية كضرورة التمييز والفصل بين كل ماهو علمي وماهو إيديولوجي، فمن دون فهم المعطيات يظل هذا الموقف النقدي متعذرا وهو الدور الذي استطاع البولندي " زيغمونت باومان" تقمصه من خلال سلسلته المشهورة بالسيولة وانتقاداته الواسعة لنظام هذا المجتمع الحديث من خلال عرضه الإبستيمي ومناقشاته النقدية وكيفية توجيهه انتقادات للحداثة والمجتمع الحديث ككل، وعليه تتساءل : إلى أي مدى وفق زيغمونت باومان في تشخيص السيولة كنزعة استهلاكية لنقد المجتمع الغربي الحديث ؟ أو بعبارة أخرى هل تمكن باومان من تقويض

البنية الحديثة الاستهلاكية للمجتمع الغربي المعاصر؟

زيغمونت باومان حياته وأعماله :

1- حياته :

ولد زيغمونت باومان يوم 19 نوفمبر 1925م ببوزنان ببولندا، من أبوين يهوديين بالاسم والده هو موريتز باومان والذي كان يشتغل محاسبا وأمه صوفيا ني كوهن، اتجهت عائلته شرقا إلى الإتحاد السوفياتي بعد الاحتلال النازي لبولندا عام 1939م، حيث اشتغل باومان في الجيش البولندي الأول والذي كان يقيادة سوفياتية كمدرس للعلوم السياسية، وقد شارك في أثنائها في عدة معارك منها معركة كولبرج (وهي كولوبوزيج حاليا) وبرلين [1]، وفي مايو 1945م منح الصليب العسكري للشجاعة (وهي ميدالية على شكل صليب) تكريما له.

عمل باومان أيضا في فيلق الأمن الداخلي وفي هذه الأثناء درس علم الاجتماع في أكاديمية وراسو للعلوم الاجتماعية، ثم بعد ذلك اهتم بدراسة الفلسفة في نفس الجامعة علما أن علم الاجتماع في تلك الأثناء قد ألغي مؤقتا من مناهج التعليم البولندية، وذلك لاعتباره حقلا معرفيا بورجوازيا، أما عن أهم الأساتذة الذين درسوا باومان في الجامعة نذكر على سبيل المثال : ستينسلو، أوسوسكي، جوليان، هوتشفيلد، ...

يعتبر باومان عالم اجتماع وأحد أهم المثقفين والأكثر تأثيرا في أوروبا، والمعروف بأعماله التي تفحص التغيرات الواسعة في طبيعة المجتمع وتأثيراتها على الأفراد والتي ركز فيها بالدرجة الأولى على كيفية تأثير الفقراء والمحرومين على التغيرات الاجتماعية [2]، أكمل بعدها بومان دراسة الماجستير وفي سنة 1954م أصبح محاضرا في جامعة وارسو حيث استقر بها إلى غاية 1968م، كما كان له تواجد أيضا في قسم الاقتصاد بجامعة لندن وذلك تحت إشراف الاستاذ روبرت ماكينزي، والذي كان مشرفا له أثناء دراسته عن الحركة الاشتراكية البريطانية والتي أصبحت فيما بعد أول كتاب له في مجال تخصصه، وقد نشر الكتاب باللغة البولندية عام 1959م وتم تنقيحه وترجمته إلى الإنجليزية في طبعة سنة 1972م [3] .

(1) - HTTPS// ar .m.wikipedia.org. 15/03/2022. h 22.00

(2) - britannica ,zygmunt Bauman polish- borne sociologist, Patricia Bauer ,la date 15/03/2022, h 02.00.

(3) - المرجع السابق، https//.ar.m.wikipidia.org. 16/03/2022.h 16.00

وفي لقاء له مع صحيفة الجاديان أكد باومان اعتناقه الشيوعية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية وأنه لم يجعل من الأمر سرا كما اعترف أنه كان على خطأ عندما التحق بالمخابرات العسكرية في سن التاسعة عشر (19) على الرغم من أن وظيفته المكتبية غير فعالة، ولكنه لم يخبر أحد بذلك[1] كما كان على تواصل دائم مع استاذه جوليان والذي استخلفه في منصبه كنائب لليونيسكو لقسم دراسات علوم الاجتماع في باريس سنة 1962، وقد ظل باومان في هذا المنصب بعد ذلك إلى أن وجد كرسيا في قسم علم الاجتماع في جامعة ليدز والتي أصبح فيها بعد ذلك رئيسا للقسم، ومنذ ذلك أخد ينشر كتبه بالإنجليزية والتي تعتبر لغته الثالثة حيث اشتهر وذاع صيته بشكل كبير آنذاك إلى أن وافته المنية يوم 09 يناير 2017 م في ليدز بإنجلترا[2].

2- السيولة بين الدلالة اللغوية والاصطلاحية

مفهوم السيولة

لغـــــة: ورد تعريف السيولة في معجم المعاني الجامع، أن: سيولة (اسم) من المصدر سال، ومنه القول سيولة الدم، أي جريانه، كذلك سيولة الأوراق النقدية أي وجودها بكثرة، وقولك سيولة نقدية مصرفية، أي مبالغ من المال متوفرة لدى المصرف تمكنه من تسديد التزاماته لأجل قصير ومتوسط بالنقد المتوفر إليه، كما ورد الفعل سال بمعنى: طغى، سال الماء أي جرى وانساب، يسيل الماء من السقف: يقطر، سالت شمعة بمعنى: ساحت ذابت اي تحولت إلى سائل خلاف جمدت[3].

السيولة من المنظور العلمي (الفيزياء) مأخوذة من سائل liquide أي طور المادة الذي تكاد تنعدم فيه انضغاطيتها، وفي هذا الطور تكون المادة حالة مائعة، وتتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل الإناء الذي يحتويها إلى منسوب معين يسمى سطح السائل، وفي نفس المفهوم نجد (إسالة) liquéfaction ومعناها تحويل المادة غلى السائلة، ويطلق المصطلح عادة على

(1) - interviewer erroneously claims that the Brickhouse" article was written by Bogdan Musial, a conservative Polish historian working in Germany. In fact, it was written by Institute of National Remembrance employee Piotr Gontarczyk; Musial had simply repeated Gontarczyk's findings in the German Frankfurter Allgemeine Zeitung. www.the guardian.com, éducation 15/03/2022. H 20.00

(2) - المرجع السابق، HTTPS//ar.m.wilipidia.org. 16/03/2022. H 20.3

(3) -معجم المعاني، Almny.com

التحويل من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة، وخاصة بالنسبة للمواد التي توجد في حالتها الغازية عند درجة الحرارة والضغط العاديين، كما نجد في الفيزياء أيضا ما يعرف بخط الإسالة liquides المكونة من عنصرين الاول يعرف بالمنحى الطوري phase diagramme الذي يبين درجة الحرارة والثاني بالتركيز وهو يبين درجة الحرارة التي يتم عندها الانصهار كلما ارتفع تركيز المذاب في المذيب[1].

وفي الإطار نفسه نجد السيولة الفائقة بحيث أن بعض السوائل تتدفق بشكل كبر عندما تقترب درجة حرارتها من الصفر المطلق، وتنساب بلا توقف على جوانب الأوعية الحاوية لها مهملة قوى الاحتكاك والجاذبية وبإمكان هذه السوائل التي توجد في درجات الحرارة البالغة الانخفاض أن تخترق الطوب والدوران بلا توقف... وفي السياق نفسه نجد السائل أو السيولة كحالة سادسة للمادة حيث تنتقض كل القوانين الفيزيائية الاكيدة للسوائل[2].

مفهوم السيولة عند زيغمونت باومان:

اعتمد زيغمونت باومان بشكل كبير ومتكرر مصطلح السيولة في كل مؤلفاته حتى اصبحت تعرف بسلسلة السيولة المدونة في كتب الفقه الاستراتيجي، وما جعل باومان يركز على استعمال هذا المصطلح هو أخده لتلك الحالة الفيزيائية للمادة لما تكون صلبة وانتقالها إلى حالة أخرى تكون لزجة مائعة وسائلة، وقد أخد هذا الشكل و الصورة كي يعبر بشكل كبير عن الكيفية التي تحول بها المجتمع من حالة الصلابة (الحداثة) إلى حالة الميوعة (ما بعد الحداثة)[3] كما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح السيولة قد طبع ولازم أغلب مؤلفاته، وقد عبر عن ذلك في أحد كتبه قائلا: "إن ما تتميز به طريقة الحياة الحديثة عن أنماط الحياة السابقة السائدة يكمن في التحديث الوسواس القهري الإدماني فهو يكمن في الإذابة المتواصلة والإحلال السريع للبنى والنماذج الذاتية " . فمفهوم السيولة حسبه يكمن في تلك المرونة التي تقف في وجه الصلابة وقد عبر عن هذا أيضا بقوله: "السيولة هي الصلابة الوحيدة واللايقين هو اليقين الوحيد"[4] .

فالسيولة إذن حسبه هي ذلك النموذج الذي يحكم نمط حياتنا المعاصرة من خلال

(1) -أحمد المنصور، معجم مصطلحات الفيزياء، النيل العربية، مصر، ص 589.

(2) -أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف، السيولة الفائقة أغرب حالات المادة، blog spot.com

(3) -الجهني، 2015، ص28.

(4) - بوبر هوبر، 2011، ص28).

تقنية الصهر والتمييع والإذابة، فكل شيء ممكن أن يحدث ولكن لا شيء يمكن أن نفعله بثقة واطمئنان، وكذلك الحال بالنسبة لقيم المجتمع فالسيولة لا تكون فقط في سهولة الحركة والتنقل نتيجة التطورات المتسارعة في وسائل الاتصال والتنقلات، بل تصل إلى تبعد من ذلك ويمكن ان تصل إلى حد سيولة المشاعر والعلاقات والمعاني.

فالمعنى قد غاب وأتلف بسبب التنقلات والبحث واللهاث وراء كل ما هو جديد[1]. وقد انطلق زيغمونت باومان في توظيف السيولة كأداة نقدية من مقولة "رالف إمرسون" والتي عبر من خلالها على أن :"التزلج على جليد عائم يعني بأن سلامتنا في سرعتنا" والقصد هنا إننا نعيش في مجتمع سائل مجتمع تغيرت كل ظروف حياته بشكل سريع حتى لم يعد يسمح باستقرار عاداته وتقاليده، فسيولة الحياة تتغدى وتنمو وتترعرع من سيولة المجتمع، وتستمد طاقتها وحيويتها منها، لأن الحياة السائلة مثلها مثل المجتمع الحديث السائل لا تحتفظ بشكلها ولا تدوم على حال، وأن أهم ما يميز هذه الحياة هي تجارب الماضي والتي لا يمكن أن تستوعب ما يطرأ على الظروف من تغيرات سريعة وغير متوقعة .ونعني هنا أن الركون إلى أحداث ووقائع ماضية واستقراء مسارات مستقبلية أصبح بمثابة مجازفة بالغة وغير مسبوقة، فلا يمكن الركون إلى احتمال مسارات مستقبلية ركونا تاما ومطمئنا[2].

فتجربة العيش تلخصها عبارة " الخوف دائم وفي كل مكان "هذا الانتشار الكبير للخوف يرتبط بالأساس بالظلام السائد، حيث لا يمكن أن تقع أية واقعة وفي نفس الوقت لا يمكن لأحد ان يعلم مآل ذلك، لأن هذا الظلام هو الموطن الطبيعي للإحساس بالخوف واللايقين؛ لأن الحداثة كانت تعد البشر إلى عالم خال من القدر الأعمى المغلق، وهو ما تغنى به " فيكتور هيغو" بقوله إنه زمن يقودنا فيه العلم ويتحول ويتغير فيه المنبر السياسي إلى منبر علمي. إنه عالم تنتهي فيه كل المفاجآت والأوهام وسلوكيات الحياة الطفيلية، إنه زمن خال من كل شيء يصدر عنه الخوف، وتبقى الحياة هنا تدور في حلقة لنعود في الأخير إلى المكان نفسه الذي انطلقنا منه[3].

إن هذه الحياة السائلة مملوءة بالمخاطر، حياة يحياها الإنسان وهو في حالة من اللايقين

(1) - الجهني، في معنى أكبر، 2017، ص17

(2) - باومان، الحياة السائلة، 2016، ص22

(3) - باومان، الخوف السائل، 2017، ص.24

الدائم ذلك أن أشد هاجس يجابه الإنسان في حياته هو الخوف والفشل في مواكبة آخر المستجدات والتخلف عن ركب السائرين. فالحياة السائلة هي سلسلة من البدايات الجديدة والتي تكون نهاياتها مؤلمة، إذ تصبح أسبقية التخلص من الأشياء هي الأولوية على حساب تملكنا لنا بمثابة فن من فنون الحياة، والتي يجب علينا ممارستها واكتسابها، وبالتالي فإنها ميزة أهل الحياة الحديثة السائلة والتي تحتم علينا تعلم كيفية اختتام الأمور وليس الشروع فيها، أي أن نهتم بالاستهلاك أكثر من الإنتاج وفي هذا الصدد يعطينا باومان مثالا على هذا النمط الجديد من الحياة، نتيجة ماورد في "صحيفة الأوبزفر" والتي تقوم على جملة من المبادئ والقواعد والتي جاء في أحدها قول: "تذكر السوء الذي بينكم، ولا تتذكر الفضل بينكم" والتي اختتمت قائمة القواعد بنصيحة أخيرة جاء في مضمونها:" أدخل في علاقة جديدة" .والغرض من هذا وهو التشديد على ضرورة النسيان والحذف والإسقاط والاستبدال أخيرا[1].

إن الزمن الحديث السائل الذي تقاس به حياتنا السائلة مليء بالمخاطر والتحديات إنها أخطار دائمة وملازمة يتعذر علينا فصلها عن الحياة البشرية، فالحياة كلها صراع، صراع طويل خاسر دائما نتيجة الرعب الذي ألقي في قلوبنا، فالحياة مجرد اختبار ونحن في بحث دائم ومستمر عن جملة من الأدوات والوسائل التي تجنبنا من الوقوع في الخطأ[2]. ومنه فقد أثبت لنا أن الحياة مختلفة عن تلك التي صورها وشرعها لنا الحكماء في العصور السابقة، لأن الحياة السائلة توضح لنا أن الصراع والخوف هو أساس الحياة، وأن الأخطار دائمة وأحوالها ملازمة ويتعذر فصلها عن حياة البشر لأنها ليست خالية من الخوف والزمن الحديث السائل الذي نعيشه[3].

وفي هذا الصدد يرى " ميلان كونديرا" أن محيط الحياة السائلة غارق في الضباب حيث لا نرى شيئا ونعجز عن الحركة، ففي الضباب يكون المرء حرا، ولكنها حرية في ضباب، فيمكننا أن نرى على بعد مسافة 30 أو 50 قدما، ويمكننا أن نفرح بالأشجار الجميلة على طول سيرنا في الطريق وأن نلاحظ المارة في الطريق وأن نجتنب الاصطدام بالآخرين ونتفادى الصخور الضخمة أو الحفرة أمامنا، بالإضافة إلى ذلك الأخطار التي لا يمكن أن نتوقعها ونحسب احتمالاتها هي بالتأكيد أبشع الأخطار لأنها غير قليلة للتوقع.

(1) - باومان، الحياة السائلة، 2016، ص23.

(2) - باومان، الخوف السائل، 2017، ص31.

(3) - باومان، المصدر نفسه، 2017، ص32.

3/ وصف وخصائص المجتمع السائل:

انطلاقا من مقولة "رالف ولدو إمرسون" القائلة: "التزلج على جليد عائم يعني أن سلامتنا في سرعتنا". بدأ "زيغمونت باومان" توظيف السيولة كأداة نقدية يشرح فيها ذلك انطلاقا من أننا نعيش في مجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال منتظمة، وهكذا تتغذى سيولة الحياة وتنمو وتترعرع على سيولة المجتمع، وتستمد طاقتها وحيويتها منها والعكس صحيح، والحياة السائلة تماما مثل المجتمع الحديث السائل، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظل على حالها وقتا طويلا.

إن أهم ما يميز هذه الحياة السائلة أن تجارب الماضي لا يمكن أن تستوعب ما يطرأ على الظروف من تغيرات سريعة غير متوقعة إلى حد كبير، وربما لا يمكن توقعها وهذا يعني أن الركون إلى أحداث ماضية في استقراء المسارات المستقبلية صار وكأنه مجازفات بالغة غير مسبوقة، بل وعلى حسابات مضللة في الغالب بل أصبحت مجهولة ولا يمكن الركون إلى احتمالات مساراتها المستقبلية ركونا تاما مطمئنا[1]. كما أن تجربة العيش في هذه الحياة تلخصها عبارة بليغة شهيرة: (الخوف دائم في كل مكان) وهذا الانتشار العام للخوف يرتبط بالظلام السائد، إذ يمكن أن تقع أية واقعة ولا أحد يعلم مآل ذلك، فليس الظلام هو سبب الخطر ولكنه الموطن الطبيعي للإحساس بالخوف واللايقين فقد كانت الحداثة تعد البشر - باعتبارها قفزة كبرى إلى الأمام إلى عالم خال من القدر الأعمى المغلق فقد كان "فيكتور هيغو" يتغنى بزمن يقودنا فيه العلم ويتحول المنبر السياسي إلى منبر علمي، زمن تنتهي فيه المفاجآت والأوهام وأنماط الحياة الطفيلية، زمن خال من كل شيء يصدر عنه الخوف، غير أن الطريق المأمول للهرب أثبت عكس ذلك، فالحياة هنا بقيت في طريق دائرية تعيدنا إلى المكان نفسه الذي بدأنا عنده، فبعد مرور 05 قرون نقف الآن على الطرف الآخر من فناء المقابر الفسيحة التي دفنت فيها الآمال المحطمة ويبدو لنا أن الخوف دائم في كل مكان. وأن الزمن الذي نعيشه هو زمن الخوف مرة أخرى[2].

إن الحياة السائلة حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم

(1) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 22

(2) زيغمونت باومان، الخوف السائل، المصدر السابق، ص 24.

وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرة ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة ومن التخلف عن ركب السائرين ومن إغفال تواريخ نهاية الصلاحية، فالحياة السائلة سلسلة من البدايات الجديدة التي تكون النهايات فيها سريعة مؤلمة وهي أصعب لحظات الحياة السائلة وأوجعها وهكذا أصبح تعلم أسبقية التخلص من الأشياء على تملكها أحد فنون هذه الحياة وإحدى المهارات اللازمة لممارستها، وبذلك تصبح ميزة أهل الحداثة السائلة أو أهل الحياة الحديثة السائلة في تعلم كيفية إنهاء الأمور واختتامها لا في كيفية الشروع والبدء فيها بمعنى في كيفية الاستهلاك لا الإنتاج، وقد ذكر "باومان" مثالا على هذا النوع من النمط في الحياة من خلال ما ورد في صحيفة "الأوبز فر" والتي تضع قواعد جديدة تبدأ بقاعدة تقول: تذكر السوء بينكم ولا تتذكر الفضل بينكم، وتنتهي القائمة بنصيحة تقول: (ادخل في علاقة جديدة) ويسود تلك القائمة تشديد على ضرورة النسيان والحذف والإسقاط والاستبدال[1].

والأفظع من ذلك كله هو الانتشار الواسع للمخاوف، فهي تتسرب من كل شبر في بيوتنا وكوكبنا، من الشوارع المظلمة ومن شاشات التلفزيون البراقة ومن غرف نومنا ومن مطابخنا ومن أماكن عملنا ومن قطارات المترو التي نركبها ذهابا وإيابا، ومن الناس الذين نقابلهم ومن الناس الذين عجزنا عن ملاحظة وجودهم ومن أطعمة أكلناها ومن أشياء لمسناها، ومن الطبيعة القادرة على تدمير بيوتنا وأماكن عملنا، وعلى التهديد بتدمير أجسادنا حيث تنتشر الزلازل والفيضانات والأعاصير والانهيارات الطينية، والجفاف والموجات الحارة أو من أناس غيرنا قادرين على تدمير بيوتنا وأماكن عملنا، وعلى التهديد بتدمير أجسادنا حيث تنتشر في أي لحظة الأعمال الوحشية الإرهابية، وجرائم العنف والاعتداءات الجنسية والطعام السام والهواء الملوث أو الماء الملوث، وها هو " كريج براون " يقول بخفة دمه الباردة أثناء تأريخه يقول: (في كل مكان ترتفع درجة حرارة التحذيرات العالمية، وكل يوم تظهر تحذيرات عالمية جديدة من الفيروسات القاتلة والموجات القاتلة والجبال الجليدية العائمة القاتلة، واللحوم القاتلة، واللقاحات القاتلة، والأمراض القاتلة... فنحن نعيش في عالم حديث سائل لا يعترف إلا بيقين واحد ألا وهو اليقين بأن الغد ليس ما يمكن أن يكون ولا ما ينبغي يكون، بل ما يكون هو التدريب المستمر على الاختفاء والذوبان والانسحاب والرحيل[2].

(1) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 23.

(2) زيغمونت باومان، الخوف السائل، المصدر السابق، ص 28.

وتكون الفرصة متاحة للعيش في هذا المجتمع مع أولئك الذين ينتشرون بالقرب من قصة هرم القوة العالمية، أولئك الذين لا يكترثون بالمكان ولا ينزعجون من المسافة، أولئك الذين يشعرون أينما كانوا أنهم في بيوتهم إنهم أناس ينعمون بخفة الحركة وسرعة الانتشار والتجدد[1].

هؤلاء يصفهم "جاك أتالي" قائلا: "إنهم لا يملكون مصانع ولا أراضي، ولا يشغلون مناصب إدارية، بل تأتي ثرواتهم من مورد متنقل ومن معرفتهم بقوانين المتاهة، إنهم قوم يحبون اللعب والتنقل الدائم، إنهم يعيشون في مجتمع القيم الآنية العابرة الخالية من الهموم مجتمع لا يحمل هم المستقبل، يتمركز حول الأثرة واللذة، إنهم يرون في الجدة بشارة وأنباء سارة، وفي عدم الثبات قيمة، وفي عدم الاستقرار واجبا وفي الحياة الهجينة ثراء، وإن كانوا جميعا يتقنون بدرجات متفاوتة فن العيش في المتاهة، وهو فن يتجسد في قبول التوهان والاستعداد للعيش خارج المكان والزمان والترحيب بالتوار وفقدان التوازن من دون معرفة ولو طفيفة بالوجهة التي يقصدونها أو المدة التي تستغرقها الرحلة التي شرعوا فيها"[2]. فهؤلاء يسعون جاهدين إلى اتباع النموذج الذي سنه (بل غيتس أيقونة النجاح في عالم الأعمال الذي وصفه "ريتشارد سينيست" بأنه يتسم باستعداده لتحطيم ما صنع من دون اكتراث، وقبوله للتفتيت والتحطيم، وبأنه شخص يملك ثقة تجعله يسكن الاضطراب ويصعد نجمه وسط الانفصال والتفكك، شخص يفضل أن يضع نفسه في شبكة من الإمكانات والخيارات على أن يشل حركته في وظيفة بعينها، كما أن الأفق المثالي لمثل هؤلاء الناس سيكون مدينة اسمها (يوتروبيا) *Eutropia* أي طلاقة الحركة، وهي إحدى المدن الخفية التي صورها "إيتالو كالفينو" ففي هذه المدن عندما يستحوذ الملل والضجر على أحدهم، وعندما لا يتحمل وظيفته وأقرباءه ومنزله وزوجته ينتقل إلى أقرب مدينة ويحصل فيها على وظيفة جديدة، ويتخذ زوجة جديدة، ويرى منظرا جديدا عندما يفتح النافذة ويقضي وقته في متع جديدة، ويرى أصدقاء جدد ويخوض في ثرثرة جديدة[3].

وفي المجتمع الحديث السائل تستحوذ صناعة التخلص من النفايات على المواقع القيادية في اقتصاد الحياة السائلة، ويقوم بقاء أفراد ذلك المجتمع ورفاهيتهم على السرعة التي يتم بها إرسال البضائع والمنتجات إلى عالم النفايات، في هذا المجتمع لا يسلم شيء من قابلية

(1) زيغمونت باومان، الحداثة السائلة، المصدر السابق، ص 24.

(2) جاك أتالي، طرق الحكمة، تر: محمد زكريا اسماعيل، دار العلم للملايين، 1992، ص 108.

(3) جاك أتالي، المرجع نفسه، ص 64.

التخلص بعد الاستعمال، فما من شيء يمكنه أن يمكث في ذلك المجتمع أطول من مدة الترحيب به، والحياة في مجتمع حديث سائل لا يمكن أن تتوقف عن الحركة الدائبة فلا بد لها من أن تعكف على التحديث وإلا ستفني، وهكذا فإن الحياة في مجتمع حديث سائل يدفعها من الخلف الهلع من انتهاء الصلاحية، إذ يحتاج المرء إلى أن يجري بكل قوته حتى يبقى في المكان نفسه بعيدا عن سلة القمامة التي ستكون مصير كل من هم في مؤخرة السباق[1].

كما أن الحياة في هذا المجتمع هي: نسخة مخيفة من لعبة الكراسي الموسيقية التي تحولت إلى واقع حقيقي، ويكمن كذلك في اجتناب الإلقاء في سلة المهملات، فالجري جري في مضمار عالمي[2].

إن مجتمعنا الحديث السائل مثل غيره من أشكال العيش الإنساني المشترك، هو أداة تعين المرء على تحمل الحياة المخيفة، إنه أداة تستهدف قمع رهبة الخطر التي يمكن أن تسلب المرء قوته، إنه أداة تستهدف إسكات المخاوف الصادرة عن أخطار لا يمكن منعها بنجاح أو لا ينبغي منعها بنجاح، وهذه المهمة الضرورية تتم كما يقول "توماس ماتيزن" من خلال الإسكات الصامت إذ يعرفه ويقول: "إنه إسكات هيكلي وجزء من حياتنا اليومية، وهو غير محدود يؤثر فينا أيما تأثير ويحث بلا صخب ويمر دون أن ننتبه إليه، وهو يتسم بالحركية الدائمة فينتشر في مجتمعنا ويزداد تأثيره باستمرار"[3].

تتدفق الحياة السائلة وتتهادى في السير من تحد إلى آخر ومن حدث منفصل إلى آخر والسمة المألوفة للتحديات والأحداث المنفصلة هي أنها عادة ما تكون قصيرة الأجل والباعثة على الخوف حتى وإن كانت على السيطرة، هي أخطار دائمة وأحوال ملازمة يتعذر فصلها عن الحياة البشرية، فليست حياتنا خالية من الخوف والزمن الحديث السائل الذي تقاس فيه حياتنا ليس خاليا من الأخطار والتهديدات، بل أن الحياة بأسرها في هذا الزمن هي صراع طويل خاسر على الأرجح ضد امكانية التأثير السلبي المحتمل للمخاوف وضد الأخطار

(1) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 24.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(3) زيغمونت باومان، الخوف السائل، المصدر السابق، ص 24.

الحقيقية أو الخالية التي تلقي في قلوبنا الرعب، أصبحت كالحياة بحثا مستمرا واختبارا دائما للسبل والأدوات التي تعيننا على منع وقوع الأخطار ولو لفترة مؤقتة[1].

4/ ابستيمية باومان نحو المجتمع السائل:

يختلف المجتمع الحديث السائل عن المجتمعات السابقة له، وهو اختلاف يشبه اختلاف بيت البستاني وحارس الصيد، ففي المجتمع الحديث السائل نجد ما يسمى بتعضيد النظام أي منع انتشار السلوك الإنساني بمعايير أو مقاييس معينة، ولا يعتقد المجتمع الحديث أنه من الممكن أن يكون آمنا بدون الأخذ بمقاييس لحراسة أمنه عن وعي وترو، وتعني هذه المقاييس بداية وفي المقام الأول إرشاد السلوك الإنساني وملاحظته، وضبطه اجتماعيا وهذا الذي يفتقد إليه المجتمع الحديث السائل[2].

كما أن السمة الأبرز لنظام المجتمع الحديث هي سمة التفكك الاجتماعي الشديد فهو مجتمع لا يبدو عليه انعدام الشكل أو عدم الاكتمال أو عدم الوضوح، كما أنه لا يبدو عاجزا عن مقاومة يد البستاني الذي يرعى بكل عناية النباتات الأفضل من الغداء والهواء والضوء وهو متعد في نفس الوقت كي يتقولب في أي قالب يختاره له هذا البستاني[3].

إن هذا المجتمع الحديث السائل مثلما يقول "إميل سيوران": يعني الخوف ويعني التفكير باستمرار، والعجز عن تصور مسار موضوعي للأحداث، الشعور بالرعب، الشعور بأن كا ما يحدث ضدك، إنه مجتمع الإنسان المذعور فكل شيء يتآمر ضده[4].

ويكون وصف الناس في هذا المجتمع بأولئك الذين لا يكترثون بالمكان، ولا ينزعجون من المسافة أولئك الذين يشعرون أينما كانوا أنهم في بيوتهم، إنهم أناس ينعمون بخفة الحركة وسرعة الانتشار والتجدد، وجودهم قائم على الترحال الدائم، أما غيرهم ممن يرغمون على المشاركة في اللعب.... لأنهم لا يقدرون على التنقل الدائم والحركة الدائبة، ومع ذلك يتوجب على هؤلاء المساكين أن يتعلقوا بأشياء في. خفة، فالممتلكات والمواقف والناس سيتفلتون منهم على الدوام ويختفون بسرعة خاطفة مهما فعلوا ومهما حاولوا إبطال هذه السرعة...

(1) زيغمونت باومان، المصدر نفسه، ص31.

(2) زيغمونت باومان، الحرية، تر: فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، 2017، ص 65.

(3) زيغمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، المصدر السابق، ص 198.

(4) المصدر نفسه، ص 345.

هؤلاء ليس بوسعهم التعويل على حلم من يرغبون الابتعاد عنهم ولا على تسامح من يتمنون الاقتراب منهم، فلا يجدون مخارج من دون حراسة ولا مداخل مفتوحة ترحب بهم، إنهم ينتمون فحسب ويرون انتماءهم واجبا لا نقاش فيه ولا جدال[1].

وها هو "أندريه سهاج" أحد أبرز المحللين للتناقضات العميقة في لعبة الهوية في الأزمنة المعاصرة، يؤكد أن ترك مجتمع الانتماء إنما هو أمر خارج طوق الفكر والخيال، بين المطرقة والسندان، وبين أمرين أحلاهما مر تستحوذ على هؤلاء الناس مشكلة الهوية، ويقدم مثالا على ذلك لفهم هذه المشكلة ظل ما أفرزته الحداثة في المجتمع الحديث السائل ففي قمة الهرم في تتمثل المشكلة في اختيار أفضل نموذج من بين النماذج المتعددة المتاحة في أجزاء الهوية التي تم شراؤها كل على حدى وتركيبها من دون ليونة مفرطة - خشية أن تنكشف الأجزاء القبيحة البالية التي لا بد من إخفائها ومن دون صلابة مفرطة خشية أن يقاوم خليط الترقيع عملية التفكيك ما أن يحين موعد التفكيك ولا مناص من ذلك، أما في قاع الهرم فتمثل المشكلة في التشبث السريع بالهوية الوحيدة المتاحة، وجمع شتاتها، ومقاومة قوى التعرية وضغوط التفكيك والانهيار، وترميم الجدران المتداعية على الدوام وحفر الخنادق وزيادة أعماقها، أما المعلقون بين مطرقة القمة وسندان القاع، فمشكلتهم خليط من الاثنين[2].

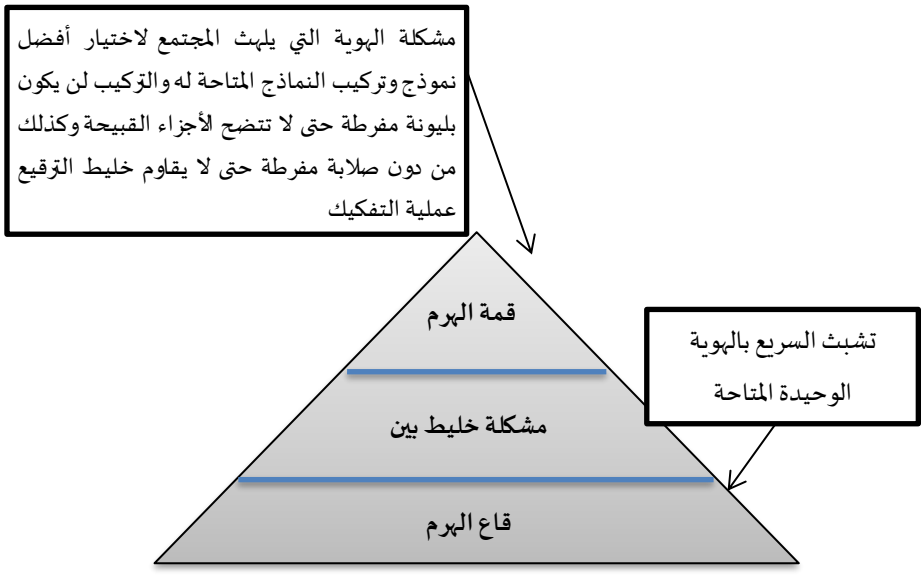

(1) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 27.

(2) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص 28.

وها هو "أندريه اشتازيوك" أحد أبرز خبراء وثائق الثقافات المعاصرة ومعاناتها يستلهم لوحات رسمها الكاتب "جوزيف برودسكي" لأهل هذا الزمان ممن ينعمون بالثراء المادي ويعانون الفقر الروحي، أولئك الناس الذين ملوا مثل أهل مدينة يوتروبيا التي صورها "إيتالو كالفينو" من كل شيء تمتعوا به إلى الآن، ويصنف "أندريه اشتازيوك" هذه الفئة ضمن (البروليتاريا الرئة الروحية ويذهب إلى أن أعدادها تتزايد بوتيرة سريعة، وتتسرب آلامها وأوجاعها بغزارة من القمة إلى القاع[1].

يري "زيغمونت باومان" أن الحداثة قد تحولت إلى الحالة السائلة بطرق جديدة مختلفة تتجاوز الرؤية الحديثة الباكرة لكل من "ماركس وإنجلز" والعبارة الشهيرة في البيان الشي: وعي (كل ما هو صلب يذوب ويختفي) وثمة علامتان فارقتان في هذا التحول الجديد:

أولا: تذوب جميع الأشكال الاجتماعية بسرعة تفوق السرعة التي تتشكل بها الأشكال الجديدة فلا يمكنها أن تحتفظ بشكلها ولا أن تتخذ أطرا مرجعية صلبة لأفعال البشر واستراتيجيات الحياة، بسبب الوقت القصير لصلاحية استخدامها، لقد لاحظ "باومان" أن الحداثة صارت أكثر مرونة وحركية بعدما كانت تبدو صلبة وثابتة، تلك السيولة التي تتسرب الآن في نواحي كثيرة[2].

ثانيا: تنفصل السلطة والسياسية في زمن الحداثة السائلة، فالسلطة تقع الآن في فضاء عولمي يتجاوز حدود الأمة / الدولة، ولكن السياسة التي كانت مرتبطة في الماضي بالمصالح الفردية والعامة تبقى محلية وعاجزة عن الفعل، وأما السلطة من دون تحكم سياسي فتصبح مصدر قلق كبير.

إن ذوبان الأشكال الاجتماعية وانفصال السلطة والسياسة هما سمتان أساسيتان للحداثة السائلة، فالسلطة في الحداثة السائلة لابد أن تتمتع بحرية التدفق، وهنا تمثل العوائق والحدود إزعاجا لا بد من التغلب عليه أو اجتنابه، وأما الشبكات الكثيفة المحكمة للروابط الاجتماعية هي التي تسمح للسلطة بالعمل[3].

(1) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 28.
(2) زيغمونت باومان، المراقبة السائلة، المصدر السابق، ص 27.
(3) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 31.

إن الحياة السائلة حياة استهلاكية، إنها تجعل من العالم بكل أحيانه وجماداته موضوعات للاستهلاك، تفقد نفعها عند استخدامها وتفقد معه سحرها، وجاذبيتها وإغوائها وإغرائها، إنها تشكل معايير تقييم أحياء هذا العالم وجماداته وفق نموذج موضوعات الاستهلاك، وهذه الموضوعات لها عمر افتراضي نفعي قصري، وإذا انتهى فلا يصلح استهلاكها وما دامت عبارة (صالح للاستهلاك) هي الصفة الوحيدة التي تحدد وظيفة هذه الموضوعات، فإن انتفاء هذه الصفة يجعلها غير صالحة تماما أي غير نافعة، فإذا فقدت صلاحيتها، وجبت إزاحتها من ساحة الحياة الاستهلاكية إلى عالم التحلل الكيميائي وشركات القمامة حتى تفسح المكان لغيرها من موضوعات الاستهلاك الجديدة... ففي العالم الحديث السائل يبعث الوفاء على الخجل لا الفخر[1]. فالمستهلكين وموضوعات الاستهلاك قطبان نظريان ثابتان يدور حولهما أعضاء مجتمع المستهلكين كافة كل يوم، ولاشك في أن هذين العاملين يشكلان معا المنطق اليومي للحياة السائلة، ويحددان مسارها تدريجيا، وهكذا يكون المجتمع الحديث السائل قد أعلن نهاية فكرة المجتمع الفاضل، فإذا كانت الحياة السائلة تعزز الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي، فهو يستهدف في الغالب الأعم دفع المجتمع إلى التخلي التدريجي عن كل قيمة خاصة[2].

وفي سياق العيش داخل المجتمع الحديث السائل نجد ما يسميه "باومان " بالجري وراء الفردية هذه الأخيرة التي خلفتها الحياة السائلة، فحينما تولى بخار عصر الحداثة زمام الأمور من طواف ما قبل الحداثة، تراجعت " الجماعة " (*Community*) كما أن نظامها المناعي الذي كان يحميها من المشكلات صارت مشكلة في حد ذاتها، فحالة الأشياء صارت حالة من صنعنا ذلك لأن المجتمع أضحى (جماعة متخيلة) بمعنى أن المجتمع ظرف اجتماعي استغنى عن الخيال في خدمة الفحص الذاتي، وأصبح المجتمع نافضا يديه من العلاقات بين الأشخاص (المجتمعية لا الجماعية) وهذا ما يسميه فيما بعد "باومان" بـ "عالم التفاعل المباشر بين الأشخاص"، وهنا تبرز الفردية وتتشكل في التعاملات اليومية، وتعزز الاختيار الحر الوهمي فقط، وفي هذا المجتمع يصبح الحديث حديثا عن مجتمع الأفراد الذي يكون فيه الأفراد أفرادا بحكم القانون فقط، فهو مجتمع خاضع لسيرورة النزعة الفردية، والذي ننتمي إليه جميعا فهو مجتمع لم يتمكن من الحفاظ على الفردية بحكم الواقع وهي المنشودة، بل

(1) المصدر نفسه، ص 31.

(2) زيغمونت باومان، المصدر السابق، ص 33.

أصبحت صعبة المنال نظرا للتغير السريع للسمات المعهودة للهوية وعدم الاستقرار المزمن، وللطلب المتزايد حول الفردية، فكلنا الآن نمثل شخصية (أليس)[1].

حين حذرها " لويس كارول * وحذر كل واحد منا في روايته " أليس في بلاد العجائب *: (هنا والآن تأملي، الوقت يلتهم كل الجري الذي يمكنك أن تجريه، لتجدي نفسك في الموضع نفسه فإذا أردت أن تصلي إلى مكان آخر، لابد من أن تجري على الأقل ضعف السرعة التي تجري بها الآن) فالجري وراء سراب الفردية يستحوذ علينا، وتعد بأن تأخذنا إلى أهدافنا وبإقناع كل من نقابله في الشارع أو من يزور بيوتنا أننا وصلنا بالفعل إلى هذا التميز لكن هذه الرموز والعلامات تسحب البساط في الوقت نفسه من تحت الرموز والعلامات التي وعدتنا، ففي الجري وراء الفردية لا وقت للراحة والاسترخاء، كما أن النزعة الاستهلاكية استجابة للتحديات التي يمثلها مجتمع الأفراد، ويتلاءم منطق النزعة الاستهلاكية مع احتياجات النساء والرجال الذين يجاهدون في سبيل تشكيل فرديتهم والحفاظ عليها وتجديدها[2].

ففي المجتمع الحديث السائل للمستهلكين، يعلم كل فرد ويدرب، ويهيا على البحث عن السعادة الفردية بوسائل فردية، وبجهود فردية، كما تعتبر الثقافة الهجين إحدى ما يميز الحياة السائلة، والتهجين ظاهره رحمة المزج أما باطنه فهو "عذاب الفصل"، فالتهجين يقوم بفصل الهجين عن أي أصل محدد فما من سلسلة نسب بعينها يمكنها أن تدعي حقوق ملكية حصرية لشيء ما، وما من جماعة يمكنها أن تفرض رقابة سيئة على إتباع المعايير، وما من ذرية تضطر إلى الولاء للمعارف والتقاليد المتوارثة، فالتهجين إعلان للحكم الذاتي وللاستقلال، كما تُعد الثقافة الهجينة صورة مجازية تضفي رونقا إيديولوجيا ظاهريا على التحرر المتحقق أو المزعوم من المحلية، إنها حرية دخول الحدود والخروج منها في عالم تقطعه الأسوار من كل مكان، صارت تسكن اللاأماكن وتبحث عن هويتها في عدم الانتماء، فالهجين الثقافي يرغب في الشعور أنه في بيته في كل مكان حتى يتحصن من البكتيريا الخبيثة التي تمثلها الحياة المحلية[3].

إن التهجين صورة معدلة تتلاءم مع الظروف المتغيرة التي يشهدها عصر ما بعد الحداثة في مرحلة السيولة، فهو صفقة مجملة تشمل (التعددية الثقافية) بمعنى إعلان التسوية بين الثقافات وتأسيس المساواة بينها، وهكذا فالمراتب الأصلية تتآكل وتذوب، أما

(1) المصدر نفسه، ص 48.

(2) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ص 55.

المراتب الجديدة فتبلغ من الميوعة وسرعة الزوال ما يحول دون اتخاذها شكلا صلبا مميزا، وهكذا يرتبك أهل العالم الحديث السائل ويتيهون في الأرض بين أصوات متنافسة عديدة تدعي كلمة الحق من دون أن يعلو صوت واحد ووحيد في هذا التنافر ويسمع له الجميع[1]. فالتهجين يرمز إلى حركة تتجه نحو هوية غير ثابتة، بل وغير قابلة للثبات، وتبقى هوية التهجين لا تملك نموذجا خاصا محتدا، فالثقافة الهجين تأكل كل ما تجده، فلا تتقيد بالتزام ولا اختيار ولا تحيز، وهي تجد هويتها في التحرر من الهويات المسندة الجامدة باعتبارها ثقافات جامدة ومانعة وثابتة، وباعتبارها نماذج واقعية وملزمة، بحيث أن الهوية ذهبت بالمعنى الأصيل وظهرت الهوية الغير الثابتة، والتي أطلقنا عليها اسم التهجين، وأضحت الهوية محاولة يغسل فيها المرء يديه من كل الالتزامات الماضية، وتقطعت الهوية في شكل لعبة ألغاز الهوية المقطوعة بل أصبحت على شكل مشروب كوكتيل الهوية ممزوج يعده مجموعة من الذين يتقنون فن صنع هذا المشروب[2].

أما الاستراتيجية الثالثة فهي المجازية اليومية على الموت، وفي ساحة معركة الحياة الحديثة السائلة لا تهدأ أبدا مناوشات الاستكشاف الرامية إلى تحديث قائمة التهديدات والإمكانات، والغفلة اللحظية كفيلة بإقصاء القائم بفعل الإقصاء نفسه، فثمة شبح يحوم حول ساحة المعركة، إنه شبح الإقصاء، شبح الموت المجازي[3]. وعليه فإن الخوف من موت مجازي هو في جوهره الرعب من الإقصاء، وما دامت الحياة السائلة متشبعة بأشكال الموت المجازي، فهي حياة من الشك الدائم والاحتراس الصارم، فلا يمكن التنبؤ بمصدر الضربة ولا بالطرف الذي يبادر بها بعد الضيق بوعود الإخلاص وعهود ثقيلة يصعب الوفاء بها، أو بعد العثور على علاقات أخرى ازعاجا، وأكثر إشراقا ومهما اختلفت الأسباب فإن الموت المجازي عصي وصعب مثل نموذجه الأصلي ولا يمكن الفرار منه في الغالب، فلا حصانة من الموت المجازي، وما من طريقة فعالة تطالب بها بحقوقك، ناهيك عن الدفاع عنها وذلك لعدم وجود قواعد يقرها الجميع ويمكنك الاستشهاد بها ولا أوامر ولا نواهي متأصلة في معتقدات سائدة و مترسخة عبر ممارسات سائدة يمكنك الرجوع إليها حتى تبرهن بإقناع بأنّ الحكم بالإقصاء –موتك المجازي - إنما هو حكم ظالم ولا بد من إلغائه، وما من طريقة مضمونة

(1) المصدر نفسه، ص 57.

(2) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، المصدر السابق، ص 59، ص 62.

(3) زيغمونت باومان، الخوف المائل، المصدر السابق، ص 81.

لكسب قضيتك مهما سعيت جاهدا ومهما بذلت جادا[1]. ومع أن الموت هو إحدى شخصيات دراما الحياة الحديثة السائلة فإنه يختلف في عدد من الجوانب المهمة عن الموت الأصلي، وهذا وضع لا يمكن إلا أن يغير طريقة تفكيرنا في الموت والخوف منه، ولعل أبرز هذه الجوانب هو فصل فكرة الموت عن الاهتمامات بالأبدية، فلم يعد الموت في ظل الحياة السائلة يمثل النهاية القاطعة للحياة بل صار جزأها المتمم -ورتما الضروري فليس الموت معبرا من دار الحياة الزائلة إلى الحياة الأبدية ولا باب خروج من الفناء إلى الخلود، ففي حياة حديثة سائلة لا سبيل إلى نقاط اللاعودة[2].

خاتمة:

يتضح مما سبق أن باومان نجده يقدم طرحا نقديا جديدا لنظام المعيشة المعاصر الذي وصفه بنظام سائل وبالحياة السائلة التي لا تعرف السكون والجمود، بل كل ما تعرفه هو الذوبان والزيادة في الذوبان لا لشيء إنما لأن كل الظروف المحيطة بالفرد هي ظروف تساعد وتساهم في إحداث عملية إذابة واسعة وشاملة لشتى الميادين، فحياة الإنسان اليوم حسب باومان لا تتواني ولا تكف عن المشي في مضمار عالمي همه الوحيد هو الاستهلاك والسعي نحو إشباع الرغبات الاستهلاكية التي سخر لها كل وسائل الميديا التي تعمل بدورها على تطييب النوم للنائمين وتعمل على إغراق هذا الإنسان الذي يعيش هذه المرحلة في دوامة عائمة لا منفد ولا مخرج منها.

إن منطق الإنسان المعاصر هو منطق متعدد متغير لا يعرف الثبات اللهم إذا كان التغير المستمر والدؤوب هو الثبات الوحيد فنحن نعيش فوق صخر جليدي عائم لا يمكن لنا أن نثبت فيه مهما حاولنا، بل أكثر من ذلك لابد أن نكون سريعي الحركة فنجاتنا في سرعة تحركاتنا وعالمنا اليوم حسب باومان هو عالم لا يستطيع العيش فيه إلا من كان فنانا متقنا لفنون المتاهة وقد شبه هذا الإنسان بذاك الذي يتقن لعبة الكراسي الموسيقية فهذه اللعبة مبنية على الاحتمالات، ولا يمكن التنبؤ بشيء فيها.

فكذلك إذن حياة الانسان هي حياة مفعمة باللايقين وبالشك والريبة وهي حياة لزجة مائعة لأن السيولة عمت كل معاقل الحياة ولأن الحالة المادية للسيولة تجعل منها تدخل كل شيء كذلك

(1) المصدر نفسه، ص 77.

(2) زيغمونت باومان، الخوف المائل، المصدر السابق، ص 79.

الأمر للإنسان اليوم فقد فقد ثوابته وصلابته في العديد من الميادين واستطاعت الحياة المعاصرة اليوم أن تذوب كل صلب وتميع كل قيم وتفتت كل شيء باسم الجديد والحديث.

هكذا يصف باومان المجتمع السائل ويشخص له مختلف أعراضه السقيمة محذرا من خطر اجتياح السيولة لكل شيء بما فيها قيم الانسانية العالمية الراسخة.

قائمة المصادروالمراجع:

1) أحمد المنصور، معجم مصطلحات الفيزياء، مجموعة النيل العربية، مصر.
2) أسامة ممدوح عبد الرزاق مصطفى شرف، السيولة الفائقة أغرب حالات المادة، blogsopt.com.
3) جاك أتالي، طرق الحكمة، تر: محمد زكريا اسماعيل، دار العلم للملايين، 1992.
4) زيغمونت باومان، الحداثة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، لبنان، 2016.
5) زيغمونت باومان، الحداثة والهولوكوست، تر: حجاج أبو جبر، دنيا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة.
6) زيغمونت باومان، الحرية، تر: فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، 2017.
7) زيغمونت باومان، الحياة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، لبنان، 2016.
8) زيغمونت باومان، الخوف السائل، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017.
9) فتحي التريكي، ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1992.
10) محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، 2006.
11) معجم المعاني، Almaany.com.